

مبارك وساط

على دَرَجِ المِياهِ العَمِيقَةِ



طبعة الثالثة - 2020 -

مُراجَعَة ومُنقَّحة



مبارك وساط

عَلَى دَرَج المِيَاه العميقة

طبعة ثالثة

إلكترونية- 2020

طبعات هذه المجموعة:

طبعة أولى: دار توبقال، 1990.

طبعة ثانية (مُنقّحة ومُراجَعة): منشورات عكاظ، الرباط، 2001 (ضمن

كتاب شعريّ يتضمّن ثلاث مجموعات).

طبعة ثالثة (صيغة نهائيّة): إلكترونيّة، هي هاته.

رفيف أجنة يُضم حقولاً

حين تندلع حُقى الأحيلة في ثُقوب الليل، أنصت للهسيس المنبعث
من أعشاب عقلك الذي ينتظر إشارة المُرور إلى ضفةٍ مأهولةٍ بالدُّوار.
تسمع هينمةً في مرآة تعكس ظلالاً؟ إنَّه المجنون يُقلد عذاء روحه.
لسائه فلاةٌ يرقص فيها الحجر. شرايينه تُجار بالشتائم والهديل. يُفكر
أنه نبتة قُرَّاص، أنه غيمة...

حين تُعبّر فراشاتُ السَّهر أمام عينيك اللتين تتجاذبان لُغزاً قادماً من
جُزر أحلامك، تحسُّس صدرك الذي ترتع فيه قُلول الكلمات. رفيف
أجنةٍ يُضم حقولاً، في مكانٍ ما من هذه الفتاهة، والمجنون يتمدّد
تحت شمسٍ من صنع أسلافه...

حين تُومض في قلبك موسيقى البراري المُوحشة، ستقطف فاكهة
نومه من جنائن مُضاعةٍ بالهديان.

تفاصيل الدهشة

الأنوارُ شاحبةٌ على سيقان الليلك
الخطى مُحطّمة على بلاط الشوارع
الأمواج ساكنةٌ في جنبات الحدائق
لا شيء تغَيَّر

بعد أن هجرتِ هذه النَّافذة

حيثُ يضحكُ العصفور

هذه الغرفة حيثُ نظرْتُك

ورنينُ أساورك

شالكِ، وآهاتك التي من بنفسج

ما تزالُ منثورةً على الشراشف

المكتّظة بأنفاسك

وفوق المنضدة المبقّعة بالجبر

حيث يُقهقه بوقاحة

تمثال بوذا المترهل

للأسفِ لم أستطع أنْ أبدؤَ يائساً
مثل نَشِيدِ ناضبٍ مثل جدولِ هَرمٍ
لأنَّ تفاصيلَ الدَّهشةِ تَمَّتْ خارجَ حياتي
لأنَّ أنفاسي تتلعثمُ في العراءِ
فيما الثلجُ يتساقطُ من سَقفِ الغرفةِ
ويلعبُ في حضني كطفلٍ
لا شيءَ تغيّرٍ
هيئمةِ الوزالِ تُسري في المروجِ البعيدةِ
والسَّماءِ تنثُرُ رذاذَ الهديانِ
وأنتِ تتخلَّصين من دمك وتجرين
بين أشجارِ الصُّنوبرِ المريضةِ
وعلى الأرصفةِ التي تَغصُّ
بعذابِ الموسيقى.
كان قوسٌ فُرحٍ يتزلقُ على كُشحِ هَضمٍ
والرَّبْدُ يكرّرُ أحلامَ المحيطِ

كانت أحلامك تتبعك
وأنت تتلذَّذين بالهمس وبالكلام
وفي منتصف العبارة تختفين
تاركَةً طيفك في المرأة
تاركَةً هُمومك الصَّغيرة على عتبة الباب
وجَهك في بدايات النَّهار
وثوانيك الزُّرقاء
في قلب السَّاعة الذهبي.
لا شيء تغَيَّر
رعشك تنسرب في خروم الدَّنتيلا
خوفك ينسدل على جبيني
وأنا أبتكرُ سيرةً لوردٍ عابر
قبل أن أضعَ يدي على مفتاح العلاقة
ورأسي خارج رواق البهجة
قبل أن أغمس عينيَّ في ألعابِ الوسادة

الْمُرْصَّةُ بِنَوْمِكَ وَعِطْرِكَ
وَأُنْصَتَ لَطَّالِبِ الْمُسْتَنْقَعَاتِ
وَهِيَ تَنْمُو بَيْنَ ضُلُوعِي
فِي هَذِهِ الْغُرْفَةِ الْكُئِيبَةِ
كَابْتِسَامَةِ الْقَتِيلِ
حَيْثُ الْوَقْتُ دَائِمًا
مَنْتَصِفُ اللَّيْلِ

حرائق

كَمْ جَهَدْنَا لِنرسمَ البسماتِ على شفاها الكئيبة، وحاولنا أن نُنصتَ
للصُّجة الخافتة في قعر الجرار، لأجنحةٍ تَتنفّضُ في كوابيسنا، وكثيراً
ما جلسنا بين الخرائب، في الأماسي المنخورة بالحكايات الطائشة،
عيوننا تترصدُ حُطى السَّاعات، وفي أفواهنا تنمو أغصان الليل
المتقيحة.

كَمْ شُدِّهْنَا ونحن نسمع الميآة تُدمدم، ونرى أقماراً معتوهة تسقط
في أحبولة الألم، والعانس التي تنسج الرّآيات، والرُّعاة إذ ينطفئون
كشموعٍ في البرد. كم دَرَفنا من دموعنا الخضراء، ونحن نسمع تلك
الطُّفلة المشنوقة بحبال الأفق تُكرّر كلَّ ليلة: "جميل من النُّجوم أن
تُكشِف عن أسنانها الذهبية لِعيون المسهَّدين. جميلٌ من الثلوج أن
تُقضي وقتها في أكفانِ صمتها. جميلٌ من الفلوات أن تُلقم أئداءها
للمرضى اللامرئيين...."

أحياناً، ننسى كلَّ هذا. نجلب الحشائش وننثرها على الأرائك. بإبر
الضوء نخز جلد الغسق. نضع الكؤوس في الرّوايا. نُعلّق الكراسي إلى

السَّقف. نُوقِّعُ خُطانا على شطحاتِ نهرٍ مجنون. ثمَّ نَسْتَكِينُ، في
انتظارِ الحرائقِ الموعودةِ عندِ الفجرِ.

أماكن

في شارعٍ جانبيّ

وجهٌ أليف

يتكاثر في انتظاري

في ضاحية قريبة

قبيلةٌ تُقيم طقوسَ ندمها

في ميدان المعركة

سقط ضحايا كثيرون

تحت حوافر الأصيل

في ذاكرتي

مدنٌ تهمني عليها

أمطار وأحزان

في غابة ما
امرأة تقبل ذنباً كسيحاً

على رصيف مقهى

قمرٌ ينزف

في سرّة ميت

على عتبة غابة

هياكل عظيمة

تضحك للنجوم

في كوخ مهجور

أنام متسراً على صيحتي.

شُرْفَة

رنيْنُ عضلات الليل المعدنيّة، ضجيجُ النَّهارات المُتقيّحة، رصاصاتُ الليل والنَّهار الطائشة، الرَّماد: ذاك ما تعرفه أيضاً أفواهُنا. من هذه النُّقطة انطلقتُ. وها هي تتدحرج الآن نحو النُّقطة المجاورة، حيثُ جلس رجلٌ بهيئة شحاذ. أطلق وابلأً من الشّتائم، قاصداً لا أحد، رُبّما. شرب نشيداً من الدُّموع في أقداحٍ مَكسورة. بكى تحت شُرْفَةٍ تَأوي إليها امرأةٌ كانت حبيبتني. رَقص على الجَمْر، وعلى نغمات النَّاي. وهي من شرفتها، ترعى قافلة التَّنهُدات التي تَحُجُّ إلى مَهبلها، وتمنحني عند اليقظة كأس نبيذٍ وعُشبِ الأعماق... إنها تُكرّر: "كتيبةٌ جِراح تُدندن في ساحات قلبي".

"على الشُّفاهِ أيضاً، تتفتَّحُ وُرود الدَّم في الفَجْرِ..."، تَهْذي جُمجمهُ في إحدى الحانات، فيما تُصدر المومياءُ أوامرَ للقناني الفارغة بالنَّسكُع في المزابل. حتّى إشعارٍ آخر، يبقى كلُّ شيء هادئاً.

فراودة

إفّتحى فمك قليلاً

ولتوقظ أنفاسك عيني

من سباتٍ

أمنحه لطائر

ها أنذا أفتح ذراعيّ الآن

لأمنحك نبض الماء الحيّ

ظلكِ يجوب ضفافاً بعيدة

وظليّ الذي يتبعه

سقط مُهشّماً

على إفريز الصّباح

لكنَّ نيرانِي دائماً تدعوك

عليكِ بتلقُّسِ الجَمرةِ.

أَصْفِقُ نَوَافِذَ النَّوْمِ

حدثَ ذلكَ بِمَحْضِ الصُّدْفَةِ
أمامَ الجُمُعةِ المرسومةِ على جِلْدِ اللَّيْلِ الأبرصِ
ينسجُ الموتُ في حدقتيها حبكتَه البارعةِ
من أليافِ، من بقايا صباحاتِ ذاويةِ،
أمامَ قطرةِ الخمرِ المتشبهةِ بحافةِ الكأسِ
بيأسِ حيوانٍ فقد ذاكرتهِ في معركةِ غامضةِ
بين الخُلمِ واليقظةِ،
أمامَ عينيَّ اللتين نَمَتَ فيهما
أعشابُ الكوارثِ الأليفةِ
وأجنحةُ سوداءِ
ترفُّ كلِّما بدأتِ المصاييحُ في الهديلِ
باسمي حينَ أَصْفِقُ نَوَافِذَ النَّوْمِ
وأمشي على شفرةِ الواقعِ نحو اللهبِ
كانتِ الأقماعُ الواجفةِ

تتسلَّل من فتوق الأساطير
ودمُّ الأشجار يُدثِّر ظلالَ المهاجرين
كانت الثلوج، في رثتيّ، سادرةً
في أنينها
تُفتِّتها أحزانها
كالعادة التي أسدلتِ الستائر
على مشهدٍ أبدو فيه بمحض الصدفة
مُغرَقاً صَّجري في جدول شتائم
أحفُظها منذ الولادة
تميمةً أُعلِّقها على صدر يمامة
أو امرأةٍ في آخر الليل.
حدثَ هذا بمحض امرأةٍ آخر الليل
التي تركت شيئاً من روحها
في فمي المُثقل بصرخة
تنطلق دائماً في اللحظة المناسبة

لِتَحْطَمَ الْجِدَارَ الَّذِي تَحْتَمِي خَلْفَهُ
الرَّايَاتِ مِنَ الصَّفْعَاتِ
وَالرُّضْعِ مِنْ نُبَاحِ السَّاعَاتِ الْمَرِيضَةِ:
بِمَحْضِ الصُّدْفَةِ سَقَطَتْ دُمُوعُ الْغُرَابِ
سَقَطَتْ الْأَغْصَانُ الْحَمَقَاءُ فِي شَرَكِ الرِّيحِ
ارْتَجَفَتْ قَامَةُ الْفَجْرِ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ
لَمْ يَعِدْ بَابُ الْغُرْفَةِ يُؤَدِّي إِلَى الْخَارِجِ
صَارَ لَا يَنْفَتِحُ إِلَّا عَلَى النَّعِيبِ
سَقَطَتْ طَيُورٌ نَادِرَةٌ فِي عَبَاءَةِ الْبَحْرِ
سَقَطَتْ حُطَايَ تَحْتَ وَطْأَةِ الْمَوْسِيقَى
سَقَطَتْ عَيْنَايَ فِي شَحُوبِ
الْيَاسْمِينِ...

"كَانَ مَتَأَجِّجًا، ذَلِكَ الْهَيْكَلُ الْعَظْمِيَّ"،

قَالَتْ النُّسُورُ

وَمِنْ جِرَاحِي تَطَايِرْتُ

فراشات زرقاء...

إِذَاكَ بَدَأَ جَنُودٌ مِنْ زَبَدٍ

يُطْلِقُونَ النَّارَ

عَلَى قَوَافِلِ الْأَيَّامِ.

مساءت ماطرة

مساءت ماطرة
حُطام الثرى المبتل
يَرِفُّ على قدمي
ورماد الأرزقة
يَلْفُ عُرِينَا وَحُضْرَةَ الشَّوْاطِي

كَكَلِّ مَسَاء
نَمَخِرُ عِبَابَ الْوَهْمِ
نُصْغِي لَهْتَا فِ الدَّمِ

وَإِذْ أَحْضُنُ حَجْلَكَ بِأَصَابِعِ عَمِيَاءِ
نَقْضِي اللَّيْلَ فِي الرَّحِيلِ
بَيْنَ الْخَطْوَةِ وَالْخَطْوَةِ
أَنْقَاضُ حَلْمٍ...

قبر

مرّة أخرى، تَبذر دمك في أرضِ مُجدبة. تَطفو على صفحة حياتك كقطرة زيت تائهة أو ككائنٍ غريب لم يسبق أن رآه أحد. عُواؤه غيرُ المسموع يصبغ الهواءَ بزرقة جنين وُجد مرمياً وسط القمامة ذات صباحٍ شتائيٍّ (يمكنكم تصوّر ذلك بسهولة). التّحريّيات في الموضوع أنهكت العذارى الرّاكضات في الأسواق وعلى ضفاف الأنهار التي تُسافر إلى مكان مجهول (ربّما هو الجحيم). الخوذ تترنّح بين الكروم، تستقلُّ القطارات، تستنطقُ الأجيال القادمة. المهمّ أنّهم لم يمنحوك – أيّها الكائن الغريب – أيّ اسمٍ حتّى الآن. لم يمنحوك ولو تلك الرّهرة الكليّة التي تُجهش في مستنقع، أنت الذي تَبذر دمك في أرضِ مُجدبة.

أشجارٌ عَجْرِيَّة

إنَّه الليل، أطفئِ آخرَ المصابيح
كي تُولَدِي، وتبعثي تحت لسانك
الأخضرِ شبابَ الرِّياحِ
وأحلامي المدفونة في الحدائق
عوسجٌ يتهدَّلُ تحت جلدي، يُولَد من غيابك
صمتي يُحاور ظلالاً
نشيحُ أصابعي بألوانه القُرْحِيَّة
يتسلَّق أبراجاً عالية
حيثُ تغسل بقايا الأمواج
عظامَ بخاري الفيضان الأخير
قلتُ: لأجعلُ من أنفاسي رُفِيَّة
ضدَّ تصدُّع أحلامك الطَّرِيَّة
واسمُك بين شفتيَّ جدولٌ متوقِّز
حُلْمُه أن يُغرقَ قلق الوعول

في لُجَّةٍ من ضياء النَّشِيدِ...

ها هي الأشجار الغجريَّة

تُخَلِّفُ جذورها وتَهَيِّمُ في البعيد

هناك، ليس للشمس ما تمنحه للنَّهار

غير نظراتٍ داميةٍ ليس للَّيلِ إِلَّا

اللهاثُ الحالكُ للحقول والمرضى!

ها أنا تُشعلُ لفافةً ثمَّ أُخرى

وأنتظر

ها أنا أُعَلِّقُ تميمَةً من الضُّحك

على قفا بُركان!

خلف نافذتي...

خلف نافذتي المرصعة بالبروق

تقصف أجنحة الفجر

نجيماتٍ وليدة

في الحقول المنهكة

حيث تتناجى بقع دم وأزهار

يرسم بخارٍ مسلوخ

أشرعةً ومجاذيف

على صفحة جلده المتهدل

ويحدق عراف بعينه الزجاجيتين

في غضون إليه مُحنط

بينما يتدلّى جنديٌّ

باسماً

من المشنقة

أولئك أنسلافي

وما عادوا يتعرّفون عليّ

لقد قصرت قامتي حقاً

بسبب الصّباحات الشّاحبة

التي تضغط على كاهلي

عند اليقظة

لست متوجّساً من هذا

فما دام قلبُ المرأة ينبض

ثقة أملٍ كبير

في انبعاث الشّفاه من رمادها

إِذَّاكَ سَتِينَعِ الْقَبْلَ

وَتَسْتَمْتَعِ عِظَامَ الْمَوْتَى

بِغِنَاءِ النَّمْلِ...

أَتَنَصَّتْ لِأَشْجَانِ مَوْجَةٍ يَتِيمَةٍ

بَعْدَ قَلِيلٍ أُخْرِجَ لِلتَّجْوَالِ

سَيَكُونُ لِرُكْبَتِيَّ شَكْلُ شَعْلَةٍ

أَنَا لَا يُرْعِبُنِي لُعَابُ الْفَوَانِيسِ

وَلَا سُعَالُ الدُّنَابِ

خَلْفَ الْوَاجِهَاتِ الْأَنْيَقَةِ

لَكِنْ أُخْبِرُونِي

لِمَاذَا يَتَدَثَّرُ الْمَرْضَى

بِمَعْرُوفَةِ الرِّيحِ

وَأَيْنَ هِيَ سُرَّةُ الصَّحْرَاءِ

الحنجرة تنتظر
لحظةً نُضوج الصَّرخة
الجرادة تتأوّه
على قمة المدخنة
هناك مفاجآت كثيرة
في جنبات المدينة:
لقد شرع في صلب النّادل
أمام المقهى
لقد تساقط ريشُ سنونو
على كتفيّ الحالمتين
أنا رأيت معرّضين عُراة
يُجلّدون داخل كهف
ومساءً يُوضَع

فِي تَابُوتٍ مِنْ غِبَارِ
وَزَوْجِينَ سَعِيدِينَ حَقًّا
لَهُمَا ذُرِّيَّةٌ مِنْ فُلَّيْنِ

وَهَا أَنْتِ يَا ذَكْرِيَاتِي
تَنْزَحِقِينَ
عَلَى ثُلُوجٍ
مِنْ حَرِيرِ

معادلات

سأهملأ، ٱنصت لوقع أقدام الحرأس في الرّواق، حيث تغفو تماثيل
أسيرة. باردةً ضلوعي اليوم – يقول باسمأ – كعطر الأرض القابع في
محاجر الموتى. كعين الشّاعر المدخنة، ودموع الفلكيين القدامى. كان
مُورّقاً بهموم فجر كسيح، بوحشة فوطن الصّيحة والقروح. وسمع
نغاء فزاعات مزروعة في خصرة الخريف. أشجاراً تُجفل من كوابيسها،
أنهاراً تفتح غرفها السّرية للأرامل... بدأ يكتب أرقاماً ورموزاً. عن
مروحة هاربة من السّجن. عن انفعالات الجبر. ضحك المومسات المُتبلل.
عن معاناة أجراس الليل وسُمك كلمة جدار.
كان مُورّقاً بموطن الصّيحة والقروح.

على رصيف مقهى

لا أحد من بينهم كان في حاجة إلى الألم.

أهازيجُ غامضة تتردّد في حناياهم، فيما تهبُّ أنفاس متقطّعة من ناحية التُّلال. عصفيرٌ شاردة تسقط بين الفينة والأخرى في عُبِّ المرأة ذات الوجه المُطرّز بالتُّقوب. والعُيوم الوردية الثلاث، والتي هي قواربٌ مُترعةٌ بِنُخاع الكواكب، يدفعا النسيم نحو شطآن أهلةٍ بالأجنّة. الجنديُّ الوافد عبر مفاوز موحشة، يُطارِد في المرأة كلباً أجرب. أحدهم يحاول أن يقولَ شيئاً من دون أن يحرك شفتيه. أحدهم يتحسّس عظاماً تتفتّت في جيبه. صبيٌّ مجنّح يتوقّف قليلاً عند كلِّ منضدة خلفها رجلٌ جريح. ثم يُفرد أصابعه المخملية قبل أن يختفي في الضباب الكثيف. والأعمى، النَّائي عن الآخرين، يَغوص في مياه وحشته، أهدائه مُسبلة على صرخات وبروق...

لا أحد من بينهم كان في حاجة إلى الألم.

مرثية

كان قد نسي كل شيء: قبعته في الدُّولاب، ذكرياته على طوار
مهجور، وجهها في نهاية قصيدة قديمة، سترته في سرداب،
أسماءه في دفاتر الطفولة... تمدد فوق بساطٍ من رماد، وحوله أحجار
ترنُّ في القيظ وأنيابٌ مبقعة بالدم... في المستنقع القريب، كانت
الطَّحالب هامدةً وقد أنضّأها الحنين. ولم يكن هو ليلمح شيئاً من كل
هذا. ولا الهيكلَ العظمي الذي يشتعل على هضبة. ولا ألسنة
الخريف التي تهذي وتتهراً...

خيبة الصُّباحات الكالحة غرقت في لُجة ضحكه الهادر.

خيمة الغبار

من جديد، بدأت القوارب الكاسرة تَخيَط بمِسلَاتِهَا الذَّهَبِيَّة أفوَاحَ
الأنهار، بينما الخريف يَنسجِ عِلامَاتِ استِفْهَامِ عِلى وَجْهِهِ العَابِرِينَ!
نُبوءَاتُ وَخِيمةُ أُسْتَشْفُفِهَا فِي عِينِي يَمَامَةً تُحْتَضِرُ، وَأَخْبَارُ غَامِضَةٍ
تَبْئُثُهَا إِذَاعَةُ الرُّبْدِ عَن مَصِيرِي الأَكْثَرِ غَمُوضاً. أحياناً، أُقِيمُ مَعَ سَدَنَةِ
العُشْبِ فِي ظِلِّ أساطيرِ سَامِقَةٍ، بَيْنَمَا تَتَوَعَّلُ أنْفَاسِي فِي فَجْوَةِ
الجبلِ العميقة، أَوْ أَمْضِي إِلى كَهْفِ بَعِيدٍ، أَرى فِيهِ العِلمَاءَ المُقْعَدِينَ
يَفْكُونُ أَلْغَارَ سَيْرِ الحَقُولِ. كُنْتُ، أَيْضاً، أُجَالِسُ صَدِيقِي الَّذِي يَشْتَغَلُ
بِمَنْجَمِ الذُّمُوعِ السُّودَاءِ، لِنَسْتِغْرَبَ قَلِيلاً مَن طُفُولَةِ النَّيَّازِكِ وَبُكَاءِ الحِجْرِ
الْبَيْتِيمِ. لَكِنَّ القَنَاصِينَ الأُذْهَاءَ كَمُنُوا لَهُ ذَاتَ مَسَاءٍ فِي خِيمةِ الغَبَارِ.
وَمُذَاقِ، صرْتُ أَتَطَّلَعُ إِلى كُلِّ هَيْكَلٍ عَظَمِيٍّ يُدِنْدِنُ فِي حَانَةٍ، وَكُلِّ
مِيْتٍ يُحْمَمُ تَحْتَ نَافِذَتِي، إِلى أَن نَسِيْتُ مَلامَحَةَ كَلْبَةٍ. بَقِيْتُ دَمَاءُ
السَّنَاجِبِ تَزورني. وَسَاعِي بِرِيدِ القَرَارَةِ، الَّذِي كانَ يَحْمَلُ لِي رِسائِلَ
عِلى هَيْئَةِ سِلاسلِ، وَبِطَاقَاتِ بِرِيدٍ تَسْعَلُ فِيهَا الغَرَبانَ... وَطَلَعَ حَرَّائِوُ
الأَمْواجِ الخِصْبَةِ، مَن أَكْواخِهم فِي عَمقِ المَحيِطِ، لِيَقومُوا بِمَسِيرَةِ

احتجاج من ساحة الألم العظيم حتى مقرّ إقامة العَظْم المتلألئ. جاء
الرُّعاة العميان أيضاً. وحُرُوف الجرّ المعدّبة. جاء حرّاس قوس قُزح.
وأناسٌ وغلايينٌ سُودٌ كأنّها من شُيوخِ بني حام... ومضتِ الحشود على
ضِفّة النّار، ضاربةً في أرض الوحشة الزّرقاء... في ذلك الوقت، كانت
الأزقة الخلفيّة تتلوّى على أعناقِ الدّئاب، والمطرُ، مُشعّثاً، يتقافزُ على
إيقاع قَرع الطُّبول.

عصافيرُ سكرى

ثُمَّ حَانَةُ أَنَادِمٍ فِيهَا أَشْكَالًا هَلَامِيَّةً، تَرْقُبْنَا عَيُونٌ لَمَوْتَى، وَهِيَ لَا
تَزَالُ تَنْبِضُ، مَنْسِيَّةً فِي الْكُؤُوسِ وَعَلَى الْمَنَاضِدِ. زَفِيرُ السَّاعَاتِ يَنْكُأُ
جِرَاحَ حِكَايَاتِ غَامِضَةٍ، بَيْنَمَا تَبْحَثُ قَطْرَةٌ خَمْرٍ وَحِيدَةً عَنِ مَعْنَى الْحَيَاةِ
دَاخِلَ حَنْجَرَةِ سَكِّيرٍ. الْجُنُودُ الَّذِينَ حَارَبُوا فِي السَّرَادِيبِ وَعَلَى أَرْصَفَةِ
الْمَقَاهِي يُصَوِّبُونَ بِنَادِقِهِمْ إِلَى قَلْبِ تَمَثَالٍ يَتَرَنَّحُ مُعْرَبِدًا. وَالطُّفْلَةُ
الَّتِي تَهْجَعُ مِنْذُ لِحْظَاتٍ، تَحْلُمُ بِعَصَافِيرِ سَكْرَى تَنْقُرُ لِسَانَهَا الْوَرْدِيَّ.
عَلَى عَتَبَةِ الْبَابِ، يَقِفُ شَحَّادٌ بِاسْمًا، فِيمَا تَتَسَكَّعُ رَوْحُهُ بَيْنَ صِنَادِيقِ
الْقِمَامَةِ، بَحْثًا عَنِ قِنَانٍ فَارِغَةٍ. "أَنْتَ شَجَرَةٌ مَأْفُونَةٌ، أَنْتَ غَيْمَةٌ مُخَدَّرَةٌ
الْحَوَاسِّ، ذَرَّةٌ رَمَلٌ تَبْكِي فِي أَعْمَاقِ الْمُحِيطِ..."، يَقُولُ النَّادِلُ الْمُقَنَّعُ
لِلْكَهْلِ الَّذِي يَعْمَلُ سَاعِيَّ بَرِيدٍ بَيْنَ النُّجُومِ. لَكِنَّ هَذَا الْأَخِيرَ كَانَ
يَغْطُسُ عَمُودَهُ الْفَقْرِيَّ فِي دَوْرَقٍ مِنْ نَبِيذِ بَابِلَ، وَيُفَكِّرُ فِي عَذَابِ
الْبَشَرِيَّةِ الَّذِي يَتَمَرَأَى فِي شَاشَةِ صَمْتِهِ الْعَنِيدِ.

أَعِيدُ تَكْوِينَ الْمَشْهَدِ، فَأَرَى وَجْهِي مَثْقَلًا بِكَلِمَاتِ ذَابِلَةٍ. كَلِمَاتٍ،
أَنْفَاسِي سَتَسْحَبُهَا خَلْفَهَا إِلَى حَيْثُ تَرْتَعَشُ عِظَامُ الْبَحْرِ... لِحْظَاتٍ

وأَمْضِي من شَارِعٍ إِلَى شَارِعٍ يُطَارِدُ خِيولاً غَرِيبَةً، وَهِيَ تَهْرَعُ نَحْوَ بَرَارٍ
مُدَّتِّرَةً بِغَسَقِ الكُحُولِ. لِحَظَاتٍ وَأَجْلَسَ إِلَى مَنْضَدَةٍ مِنْ زَبَدٍ، لِأَنَّصِتَ
إِلَى أَقْمَارِ شَاحِبَةٍ وَهِيَ تَبْذُرُ كَأَبْتِهَا فِي كَأْسِي الأَخِيرَةِ...

أحلامٌ تُهدد أزهاراً

ككلِّ مساءٍ، يرى الطَّيُورُ المراهقة

تتملِّى صُورَها

في فَرَايا البحرِ، ونصالَ

الشَّمسِ تَحْتُرُّ أعناقِ سُحُبٍ

في هيئَةِ ذئاب

يرى السَّاعاتِ الرَّتَّيبة

تأكلُ قَمَحَ عِينِيهِ

يَذُكِرُ أَنَّهُ كَلَّمَا قَطَعَ أَنهارَ

النَّومِ الشَّاسِعةِ

في سفينةِ الأجدادِ

استيقظَ في غابةِ تَضجُ

بهديلِ طفولتهِ المُرَصَّعةِ بالنَّيازكِ

بزئيرِ شجرةِ أكاسيا

لها رأسُ نمرِ عجوزِ

كانت قدماه تمضيان
على أسلاك الوجد الشائكة
يداه تتلمّسان جذور الغواية
وكانت النَّار الفتيّة
تحنو على جبين الثلوج
حين أضاءت الطّرائد ليلَ
الغرباء بقناديلِ دمهّا
بدأتْ أحلامه تُهدد أزهاراً
تَينَع سرّاً في حدقات المروج.

نِمالٌ تَهْرَجُ...

مُبَهْمَةٌ هَذِهِ الْحَقَائِقُ الَّتِي تَرَسِمُهَا الْغُرْبَانُ عَلَى شَاشَةِ الرُّوحِ.
مُبَهْمَةٌ نَوَايَا الرِّيحِ الَّتِي تَنْصَبُ الْفَخَاخَ لِقَدَمِيَّ، وَهَمَّا تَضْرِبَانِ فِي أَرْضِ
الْبَلْوَى وَالْجُرْحِ، حَيْثُ تَتَدَحَّرُ رُؤُوسُ الْعِنَادِلِ عَلَى بَسَاطِ أَنْفَاسِي
الْقَدِيمَةِ... أَتْرَكُ الظُّلَالَ الْوَارِفَةَ لِآلَامِ نُورَسِ، وَأَمْضِي لِلْعَمَلِ فِي
مَكَاتِبِ الرَّمْلِ، كَيْ تَسْخَنَ عِظَامِي... مَرَّةً وَاحِدَةً، سَيَنْفُتُ فَمِي أَنْقَاصُ
اللَّيْلِ وَمَرَايَاهُ اللَّعُوبِ، أَنَا الَّذِي تَرَكْتُ وَجْهِي رَهِينًا أَهْدَابِهَا: هِيَ
الطَّالِعَةُ مِنْ بئرِ الزَّمَنِ السَّاجِي. الْعَابِرَةُ مِنَ الْمَقْهَى إِلَى الْهَدِيلِ،
وَمِنَ الْهَدِيلِ إِلَى عُرْفَتِي الَّتِي تَجْلِدُهَا شُهْبٌ فَتِيَّةٌ. وَحَقِيقَةٌ تَوْجَّسْتُ
مِنْ كُلِّ تَلْكَ الْعُضُونِ الَّتِي ظَهَرْتُ عَلَى الْجُدْرَانِ. وَكُلُّ الثَّقُوبِ الَّتِي
بَرَزَتْ فِي الشَّرَاشِفِ وَالْأَحْذِيَّةِ. مِنَ الْبُثُورِ فِي وَجْهِ مَلَاكٍ حَيَّانِي وَصَارَ
رِمَادًا. مِنْ أُنِينِ الْجُلُنَارِ فِي حَدِيقَةِ صَمْتِي. مِنْ صَمْتِي فِي سَرِيرِ
الْهَآوِيَّةِ. وَمِنَ الْهَآوِيَّةِ نَفْسَهَا. وَمِنَ نَفْسِي. وَمِنَ أَنْفَاسِهَا، حِينَ تَمْرُجُ
الْمَاءُ بِالْحَمَى وَتَعَبْتُ بِالْأَعْشَابِ الْيَائِسَةِ قَرِبَ رَأْسِي. قَلْتُ: "الْأَنْهَارُ
مَنْفِيَّةٌ مِنْ مَهْدِ أَحْلَامِهَا". وَقَالَتْ: "سَرِبُ دُمُوعِ يَحْطُّ عَلَى نَهْدِي. أَنْصْتُ

لهذه الموسيقى التي تنبثق من عيون الباب...". يُمكنها أن تستمرَّ
حتى يتَهَرَّأ أديمُ الكلمات. سَأبقى متنصِّتاً للنَّمال التي تهزج في
رئتي. مُبهمٌ ديببُها في سراييني، كرفيف أجنحة الموتى.

بدأت هذه الثلوج تصدأ

أقف تحت نافذةٍ تتردد خلفها شكاوى عَجْزة ومتسولين يتقاسمون
خُبْرَ الملاحم القديمة. أقف تحت مطرٍ يقضمُ نهدَ عذراء تركض في
مفازة العذاب، خلال هذا المساء الذي يرفل في فساتين من عوسج.
طواحيته تُفنت عظام الملائكة. وأنا الذي استهلكت هذا الإعصار
الجميل، لا أرى على شاشته إلا أقدام الموتى، مغروسة في صناديق
القمامة، تتشممها الذئاب... بدأت هذه الثلوج أيضاً تصدأ أمام عينيَّ
اللتين كانتا يمامتين سجينتين، وجلدهما أقزام كانوا لا يُغادرون بطون
أقدهاتهم إلا خلال أعياد المجوس. نيرانهم تتشاءب على وسادتي كلَّ
صباح. دموعهم تصل في محجريّ، فيما أصنع حماقاتٍ مُشعّة من
رماد الأيام، وأترصد أبواباً تُهرول بأقدام آدميّة، منها سأدلف إلى
مدن الماضي، مُنقسماً في جُسوم كثيرة. قد يكون أحدها هذا
الشحاذ الذي يَغفو في محارة بِحجم خرائب عُمره الطويل. ومثلما
يندلع شَبُّ النار في قش صيف جميل، سيأخذني الحنين إلى ساحاتٍ
مكتظة بالمهالك، حيث عُميانٌ يسحلون وجوههم المنطفئة، إلى

مرافئٍ تُرسو فيها سُفنٌ مُحَمَّلةٌ بقلوب الأرامل، إلى سريري الذي
أمضي إليه عبرَ جسور سبعة، تتمدّد على كلّ منها امرأةٌ تفتح لي
ذراعين من غبار... وحين أصل إلى نقطة انطلاقي، أضيغُ في متاهةٍ
من الضوء، نشيداً في فم العاصفة.

صَدْرَ لِمَبَارِكِ وَسَاطِ

(حَتَّى غَشَتْ 2020) :

فِي الشُّعْرِ:

- **عَلَى دَرَجِ الْمِيَاهِ الْعَمِيقَةِ** (دار توبقال، الدّار البيضاء، 1990)،
- **كِتَابِ شِعْرِيّ** يتضمّن ثلاث مجموعات (منشورات عكاظ، الرباط،
2001)،

- **مَحْفُوفًا بِأَرْخِيَلَاتٍ...**

- **عَلَى دَرَجِ الْمِيَاهِ الْعَمِيقَةِ** (طبعة ثانية)

- **رَايَةَ الْهَوَاءِ**

لَمْ يَخْضَعُ تَرْتِيبُ الْمَجْمُوعَاتِ فِي الْكِتَابِ الصَّادِرِ عَنْ مَنَشُورَاتِ عَكَازٍ
لِلتَّسْلِسِ الزَّمَنِيِّ لِتَشَكُّلِهَا: فَأُولَى مَجْمُوعَاتِ م. وَسَاطِ، زَمَنِيًّا، هِيَ
عَلَى دَرَجِ الْمِيَاهِ الْعَمِيقَةِ (1990)، أَمَّا **مَحْفُوفًا بِأَرْخِيَلَاتٍ...**، فَتَمَّ
هُيِّئَتْ لِلنَّشْرِ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى، فِي نَفْسِ الْوَقْتِ مَعَ **رَايَةَ الْهَوَاءِ**، سَنَةَ
2001. وَقَدْ أَشْرَفَ الْمُؤَلِّفُ عَلَى طَبْعِ الْكِتَابِ الصَّادِرِ عَنْ عَكَازِ، فَهُوَ
مُدَقَّقٌ.

- **فَرَاشَةُ مِنْ هَيْدَرُوجِينِ** (دار النّهضة العربيّة، بيروت، 2008)

- **رجلٌ يتسم للعصافير** (منشورات الجمل، بيروت-بغداد، 2011)
- **عيونٌ طالما سافرتُ** (منشورات بيت الشعر في المغرب، 2017)

وفي 2010، صدرتُ لمبارك وساط مجموعة شعرية فرنسية-عربية، عن منشورات المنار بباريس، تحت عنوان:

Un éclair dans une forêt

في مجال التّرجمة :

وله، في مجال التّرجمة: **شذراتٌ من سفرٍ تكوينٍ منسيّ**، لعبد اللطيف اللعبي (منشورات الموجة، الرباط، 2004)، **نادجا** لأندري بریتون (منشورات الجمل، بيروت-بغداد، 2012)، **التّحوّل** لفرانتس كافكا (2014)، **الأبدية تبحث عن ساعة يد**، لأندري بریتون...

فهرس

رفيف أجنة يُضم حقولا

تفاصيل الأهشة

حرائق

أماكن

شرفة

مراودة

أصفق نوافذ النوم

مساءت ماطرة

قبر

أشجار غجربة

خلف نافذتي...

معادلات

على رصيف مقهى

مرثية

خيمة الغبار

عصافير سكري

أحلام تُهدد أزهاراً

نعال تهزج...

بدأت هذه الثلوج تصدأ

على دَرَجِ المِياه العميقة

طبعة ثالثة - مُراجعة ومُنقَّحة

إلكترونية - 2020

من قصائد المجموعة:

شُرْفَة

رنيْنُ عضلاتِ الليلِ المعدنيّة، ضجيجُ النَّهاراتِ المُتقيّحة، رصاصاتُ الليلِ والنَّهارِ الطائشة، الرَّماد: ذلك ما تعرفه أيضاً أفواهنا. من هذه التَّقطة انطلقت. وها هي تندرج الآن نحو التَّقطة المجاورة، حيثُ جلس رجلٌ بهيئة شحاذ. أطلق وابلأً من الشَّتائم، قاصداً لا أحد، ربّما. شرب نشيداً من الدُّموع في أقداح مكسورة. بكى تحت شُرْفَة تأوي إليها امرأةٌ كانت حبيبتي. رَقص على الجَمْر، وعلى نغمات النَّاي. وهي، من شرفتها، ترعى قافلة التَّنهدات التي تُحجُّ إلى مَهبلها، وتمنحني عند اليقظة كأس نبيذٍ وعُشب الأعماق... إنها تكرر: "كثيبيّة جراح تُدندن في ساحات قلبي..."

"على الشِّفاهِ أيضاً، تنفتحُ وُرود الدَّم في الفجر..."، تهذي جُمجمةٌ في إحدى الحانات، فيما تُصدر المومياة أوامرَ للقناني الفارغة بالتسكُّع في المزابل. حتّى إشعارٍ آخر، يبقى كلُّ شيء هادئاً.